

الحجج

والأخبار في حياة جلالته

الإعداد

عبد الرزاق بن عبد الرحمن الحسين البدر
غفر الله له ولوالديه ومشايخه وللمسلمين أجمعين

الحجج
والأخبار في حياة محمد وآله

تمَّ تَنْسِيقُ هذه المادة ومُراجعتها في



مكتب إنقارن
للتنفيذ والدراستات العلمية

الحجج والإختبات لله جل جلاله

إعداد

عبد الرزاق بن عبد الرحمن البدر
غفر الله له ولوالديه ولشايخه وللمسلمين أجمعين



مقدمة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم على نبينا
محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإنَّ حَجَّ بَيْتِ اللَّهِ الحرام ركنٌ من أركان الإسلام
العِظام، وهو يُعدُّ مدرسةً عَظِيمَةً مليئةً بالعِظَمِ البالغات،
والدروس النافعات، والحاجُّ المُوَفَّقُ إذا اجتهدَ في أدائه
وتكميله سيَعْنَمُ عند أداءِ هذه العِبادةِ الجليلةِ العديدةِ مِنَ
المنافعِ والعِبَرِ؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ
رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا
مَنْفَعَةً لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

الْحَجُّ وَالْإِحْبَابُ لِلَّهِ بِحَجِّهِ

وهذا أمرٌ من الله ﷻ لرسوله إبراهيم الخليل ﷺ أن يؤذَنَ وَيُعَلِّمَ النَّاسَ بِالْحَجِّ، ويدعوهم إليه؛ مِنْ أَجْلِ أَنْ يشهدوا منافع الحجِّ الدِّينِيَّةِ والدُّنْيَوِيَّةِ الكَثِيرَةَ والمُتَنَوِّعَةَ.

فمن هذه المنافع: غفرانُ الذُّنُوبِ جميعاً؛ لقول رسول الله ﷺ: «مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»^(١).

ومن منافعِهِ أيضاً: الفوزُ بِالْجَنَّةِ؛ لقوله ﷺ: «وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ»^(٢).

ومن منافعِهِ: العتقُ مِنَ النَّيرانِ، فقد قال النبيُّ ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مَنْ أَنْ يُعْتَقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو، ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلَائِكَةُ...»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٥٢١)، ومسلم في «صحيحه» (١٣٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٧٧٣)، ومسلم في «صحيحه» (١٣٤٩).

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٣٤٨).

ومن منافعِهِ أَيضاً: أَنَّهُ سَبَبٌ لِسَعَةِ الرِّزْقِ وَطَرْدِ الْفَقْرِ؛
فقد صحَّ عن النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ: «تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ،
فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكَبِيرُ حَبَثَ الْحَدِيدِ
وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ»^(١).

فهذه بعض المنافع العظيمة التي ترجع على دين العبد
وإيمانه وقلبه بالصالح والفلاح والنَّجَاح.

فينبغي على من أكرمه الله ﷻ بأداء الحج أن يهيئ
نفسه لشهود وتحصيل هذه المنافع، وأن يحرص على
تتميم حجِّه وتكميله؛ ليعود من حجِّه وقد غنم وظفر
بالكثير من العوائد العظيمة؛ والتي سيكون لها الأثر الحميد
البالغ عليه في حياته وبعد مماته؛ بركة ورفعةً وعلوًّا؛ عملاً
بقوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨].

(١) أخرجه الترمذي في «جامعه» (٨١٠)، والنسائي في «سننه» (٢٦٣١)،

وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٠).

ومن منافع وبركات الحج العظيمة على القلوب صلاحًا واستقامة - غير ما تقدّم -: إحياتُ القلوبِ فيه إلى الله بما جعل الله فيه من الشعائرِ التي تُؤثّرُ في القلوبِ إحياتًا وتواضعًا وذُلًّا وانكسارًا، ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْمِ شَعْبِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

ويدلُّ لذلك توسطُ صفاتِ المُخبتينَ وبشارتهم آياتِ الحجِّ من سورة الحج في قوله ﷻ: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِنَّهُمْ لِلَّهِ وَحَدُّهُ أَسْلَمُوا وَيُشِرُّ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْبِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۗ فَأذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۗ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاكُمْ لِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّقُوعُ مِنْكُمْ ۗ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَيُشِرَّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٧].

فالمتمم في سياق الآيات المتقدمة يجد أن الله تعالى وهو يبين لعباده بعض أحكام المناسك من سورة «الحج» وأثرها على الحاج؛ أمر نبيه ﷺ في معرض ذلك أن يُشرَّ المُخبتين من عباده ثم ذكر ﷺ صفاتهم.

فما معنى الإخبات؟ وما صفات المُخبتين؟ وما مناسبة ذكرهم ضمن آيات مناسك الحج؟ وما البشارة العظيمة التي أعدّها الله ﷻ لهم؟^(١)



(١) أصل هذه المادة محاضرة أقيمتها بمنى في موسم الحج لعام ١٤٤٤ هـ، ثم فرغت وتم إعدادها للطباعة، فراجعتها وزدت فيها بعض الفوائد والنصوص المتعلقة بموضوعها، وأشكر كل من شارك في نشر هذه الرسالة والعمل عليها، وأخص منهم الإخوة في مكتب إتقان للتحقيق والدراسات في دولة الكويت لمزيد عنايتهم بها.

معنى الإخبات

«الإِخْبَاتُ» لغةٌ مأخوذٌ من الحَبَّتِ؛ وهو: المكان المنخفضُ المظتمنُ الخاشعُ من الأرض؛ الذي تجتمع فيه المياه، وتبتُّ فيه خيرات الأرض، ويحصلُ به النفعُ العظيمُ. وأمَّا «الإِخْبَاتُ» في الشَّرْعِ فهو صِفَةٌ من صفات القلوب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]، فنَسَبَ اللهُ ﷻ الإِخْبَاتَ إِلَى قلوبِ الْمُؤْمِنِينَ.

ومعناه راجعٌ إِلَى المعنى اللُّغَوِيِّ السَّابِقِ؛ فالقلبُ الْمُخْبِتُ: هو القلبُ المتواضِعُ الخاضِعُ الخاشِعُ؛ المظتمنُ لقبولِ الحقِّ؛ المتهيِّئُ لاجتماعِ الخيرِ وثباتِهِ فِيهِ؛ كحالِ الأَرْضِ الخاشِعَةِ المظتمِنَةِ.

ولهذا جاءت عباراتُ أئمةِ التفسيرِ حولَ هذه المعاني،
فمنهم مَنْ فسَّرَ ﴿المُخْبِتِينَ﴾: بالمُطْمَئِنِّينِ المتواضعين،
ومنهم مَنْ فسَّرَها: بالوَجِلينِ الخاشعين، ومنهم مَنْ فسَّرَها:
بالمُسْتَسْلِمِينَ لله ﷻ (١).

قال ابن القيم رحمته الله: «الْخَبْتُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ: الْمَكَانُ
الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ، وَبِهِ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه وَقَتَادَةُ لَفْظَ:
«الْمُخْبِتِينَ»، وَقَالَا: «هُمُ الْمُتَوَاضِعُونَ».

وقال مجاهد: «الْمُخْبِتُ: الْمُطْمَئِنُّ إِلَى اللَّهِ ﷻ، قَالَ:
وَالْخَبْتُ: الْمَكَانَ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ».

وقال الأَخْفَشُ: «الْخَاشِعُونَ».

وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: «الْمُصَلُّونَ الْمُخْلِصُونَ».

وقال الكَلْبِيُّ: «هُمُ الرِّقِيقَةُ قُلُوبُهُمْ».

وقال عمرو بن أوس: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَظْلَمُونَ وَإِذَا

ظَلِمُوا لَمْ يَنْتَصِرُوا».

(١) انظر: «تفسير القرآن» لابن كثير (٥/٤٢٤).

الدُّخُوعُ وَالْإِخْبَاتُ لِلَّهِ تَجَلُّدًا

وهذه الأقوال تدورُ على معنيين: التَّوَضُّعُ، والسُّكُونُ إلى الله ﷻ، ولذلك عُدِّي بـ(إلى) تضمينًا لمعنى الطَّمَأِينَةِ والإِنَابَةِ والسُّكُونِ إلى الله^(١).

وقال **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: «وَالْمُخْبِتُ: الْمُطْمَئِنُّ؛ فَإِنَّ الْخَبْتَ مِنَ الْأَرْضِ: مَا أَطْمَأَنَّ فَاسْتَنْقَعَ فِيهِ الْمَاءُ، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ الْمُخْبِتُ؛ قَدْ خَشَعَ وَاطْمَأَنَّ؛ كَالْبُقْعَةِ الْمُطْمَئِنَّةِ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي يَجْرِي إِلَيْهَا الْمَاءُ؛ فَيَسْتَقِرُّ فِيهَا»^(٢).

ومِمَّا يُوَضِّحُ الْمَعْنَى السَّابِقَ لِلْإِخْبَاتِ وَيُؤَكِّدُهُ: أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَ عِبَادَهُ أَوَّلًا بِالْإِسْلَامِ لَهُ؛ الَّذِي هُوَ الْخُضُوعُ وَالانْقِيَادُ، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بِشَرِّ الْمُخْبِتِينَ؛ فَقَالَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ**: ﴿فَلَهُ أَاسَلِمُوا وَيَشِرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

فالإِخْبَاتُ صِفَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ صِفَاتِ الْقُلُوبِ، لَهَا عَوَائِدُ جَلِيلَةٌ وَبَرَكَاتٌ مَتَنُوعَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِ، أَثْنَى اللَّهُ ﷻ

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢٠٩).

(٢) «كتاب الرُّوح» (ص ٢٣٢).

على الْمُتَّصِفِينَ بها ثناءً عَظِيمًا، وَذَكَرَ لَهُمْ مَوْعُودًا كَرِيمًا،
وَبِشَارَةً عَظْمَى بِكُلِّ خَيْرٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَجَدِيرٌ بِكُلِّ
عَبْدٍ مُؤْمِنٍ أَنْ يَعْرِفَهَا، وَأَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ
مِنْ أَهْلِهَا؛ تَحَلِّيًّا وَاتِّصَافًا.

وَإِذَا تَبَيَّنَ مَعْنَى وَحَقِيقَةُ الْقَلْبِ الْمُخْبِتِ لِلَّهِ ﷻ
فَلْيُعْلَمَ أَنَّهُ يَقَابِلُ هَذَا الْقَلْبَ نَوْعَانِ مِنَ الْقُلُوبِ؛ الْقَلْبُ
الْقَاسِي، وَالْقَلْبُ الَّذِي فِيهِ مَرَضٌ، وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ ﷻ فِي كِتَابِهِ
بَيْنَ هَذِهِ الْقُلُوبِ الثَّلَاثَةِ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ فِي سُورَةِ الْحَجِّ أَيْضًا،
فَقَالَ ﷻ: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾
وَلْيُعْلَمَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
فَتَخَبَتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ [الحج: ٥٣-٥٤].

فَذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ثَلَاثَةَ قُلُوبٍ؛ الْقَلْبُ
الْقَاسِي، وَالْقَلْبُ الَّذِي فِيهِ مَرَضٌ، وَالْقَلْبُ الْمُخْبِتِ.

فَأَمَّا الْقَلْبُ الْقَاسِي: فهو قلبٌ صَلْبٌ كَالْحَجَرِ، لَا يَلِينُ إِلَى الْخَيْرِ وَلَا إِلَى الْحَقِّ، وَلَا يَقْبَلُ الْهَيْدَايَةَ، وَلَا تُكْتَبُ فِيهِ حَقَائِقُ الْإِيمَانِ، وَلَا يَعْقِلُ الْآيَاتِ وَالنُّذُرَ إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ؛ بَلْ يُبَادِرُ إِلَى رُدِّهَا وَالتَّكْبِيرِ عَلَيْهَا، فَقَدْ صَارَ قَلْبُهُ مَأْوَىً لِلضَّلَالَاتِ وَالزَّيْغِ وَالْفِتَنِ، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا؛ كَمَا قَالَ اللَّهُ فِي وَصْفِ حَالِ الْيَهُودِ: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

وَأَمَّا الْقَلْبُ الَّذِي فِيهِ مَرَضٌ: فَإِنَّهُ قَلْبٌ قَدْ حَوَى شَيْئًا مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ الَّتِي زَاخَمَتِ الْحَقَّ الَّذِي فِيهِ، فَهُوَ فِي جِهَادٍ وَمُدَافَعَةٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ صَاحِبُهُ وَأَنَابَ وَاجْتَهَدَ فِي تَزْكِيَةِ قَلْبِهِ طَهَرَ قَلْبَهُ، وَذَهَبَتْ آفَاتُهُ وَأَمْرَاضُهُ، وَأَمَّا إِذَا أَهْمَلَ إِصْلَاحَ قَلْبِهِ، وَتَمَادَى فِي غِيَّهِ وَغَفْلَتِهِ، وَطَالَ عَلَيْهِ الْأَمْدُ؛ فَإِنَّ مَصِيرَ قَلْبِهِ إِلَى الْقَسْوَةِ لَا مَحَالَةَ؛ كَمَا قَالَ ﷺ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ فَفَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

وأما القلبُ المُخْبِتُ: فهو قلبُ أهل العلم والإيمان؛
الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

فهؤلاء إذا تأملوا آيات الله ﷻ واعتنوا بتدبرها وعقلها
خَشَعَتْ قُلُوبُهُمْ، واطمأنت بها، ولانت لما فيها من النور
والهدايا ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ
اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ومن إخبارهم الله ﷻ أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم بادروا
إلى قبولها، والإذعان لها؛ كما قال تعالى في وصفهم:
﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا
وَعُمِّيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

فالإخبارُ ثَمَرَةٌ مِنْ ثِمَارِ حُسْنِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ؛
الذي هو وَحْيِ اللَّهِ ﷻ، وَذِكْرُهُ الْحَكِيمِ؛ الذي به تحيا
القلوبُ وتُخْبِتُ؛ ولتأمل في هذين المعطوفين: قوله ﷻ:
﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: الْوَحْيِ، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾؛
فالإخبارُ أَثَرٌ مِنْ أَثَارِ حُسْنِ إِيْمَانِهِمْ بِوَحْيِ اللَّهِ ﷻ.

قال ابن تيمية رحمه الله: «جَعَلَ اللهُ القلوبَ ثلاثةَ أقسامٍ: قاسيةً، وذاتَ مَرَضٍ، ومُؤمنةٌ مُخَبِّتَةٌ؛ وذلكَ لأنَّها إمَّا أن تكونَ يابسةً جامدةً؛ لا تَلِينُ للحقِّ اعترافًا وإذعانًا، أو لا تكونَ يابسةً جامدةً.

فـ «الأوَّلُ»: هو القاسي؛ وهو: الجامدُ اليابسُ، بمنزلة الحَجَرِ؛ لا ينطبعُ ولا يُكْتَبُ فيه الإيمانُ، ولا يرتسمُ فيه العِلْمُ؛ لأنَّ ذلكَ يستدعي مَحِلًّا لِينًا قابلاً.

و«الثَّاني»: لا يخلو إمَّا أن يكونَ الحقُّ ثابتًا فيه لا يزولُ عنه؛ لقوِّته مع لِينه، أو يكونَ لِينُه مع ضَعْفٍ وانْحِلالٍ.

فالثَّاني هو الذي فيه مَرَضٌ، والأوَّلُ هو القويُّ اللَّيِّنُ؛ وذلكَ أن القلبَ بمنزلةِ أعضاءِ الجَسَدِ؛ كاليدِ مثلاً، فإمَّا أن تكونَ جامدةً يابسةً لا تلتوي، ولا تبطشُ، أو تبطشُ بعُنفٍ؛ فذلكَ مثلُ القلبِ القاسي، أو تكونَ ضعيفةً مريضةً عاجزةً لضعفِها ومرضِها فذلكَ مثلُ الَّذي فيه مَرَضٌ، أو تكونَ باطِشةً بقوَّةٍ ولينٍ فهو مثلُ القلبِ العليمِ الرَّحيمِ؛

فبالرَّحمةِ خَرَجَ عَنِ الْقَسْوَةِ، وَبِالْعِلْمِ خَرَجَ عَنِ الْمَرَضِ؛
فَإِنَّ الْمَرَضَ مِنَ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ؛ وَلِهَذَا وَصَفَ مَنْ
عَدَا هَؤُلَاءِ بِالْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْبَاتِ»^(١).

وقال **رحمته الله**: «سورة الحَجِّ فيها مكِّيٌّ ومدنيٌّ، ويليُّ
ونهارِيٌّ، وسفريٌّ وحضريٌّ، وشتائيٌّ وصيفيٌّ؛ وتضمَّنت
منازلَ المسيرِ إلى الله بحيث لا يكون منزلةٌ ولا قاطعٌ
يقطعُ عنها، ويوجدُ فيها ذكْرُ القلوبِ الأربعة: الأعمى،
والمريض، والقاسي، والمُخْبِتُ الحيُّ المُطمئنُّ إلى الله،
وفيهَا مِنَ التَّوْحِيدِ وَالْحِكْمِ وَالْمَوَاعِظِ عَلَى اختصارها ما هو
بينَ لَمَنْ تدبَّره، وفيها ذكْرُ الواجباتِ والمُستحباتِ كُلِّها؛
توحيداً وصلوةً وزكاةً وحجاً وصياماً»^(٢).

فإن سَعَى المؤمنُ بقلبه إلى هذه الصِّفةِ، واجتهدَ
في تزكيةِ نفسه وترقيتها في درجات الخاشعين، ومنازلِ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٢٧٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٢٦٦).

المُطِيعِينَ الْمُخْبِتِينَ لِلَّهِ ﷻ ظَفَرَ وَفَازَ بِالْبَشَارَةِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي
أَمَرَ اللَّهُ ﷻ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا أَنْ يُبَشِّرَ بِهَا الْمُخْبِتِينَ مِنْ عِبَادِهِ.

وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ هَذِهِ الصِّفَةِ وَعُلُوَّ مَكَانَتِهَا
فَلْيَتَأَمَّلْ قَوْلَ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]، وَالْقَاعِدَةَ
عِنْدَ الْعُلَمَاءِ: «أَنَّ الْمُتَعَلِّقَ إِذَا حُذِفَ عَمَّ وَشَمَلَ كُلَّ خَيْرٍ
وَفَضِيلَةٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»، فَالْبَشَارَةُ هُنَا لَمْ تُقَيَّدْ وَإِنَّمَا
ذُكِرَتْ هَكَذَا مُطْلَقَةً لِتَتَنَاوَلَ كُلَّ فَضِيلَةٍ وَخَيْرٍ وَبِرَكَّةٍ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَلْيَتَأَمَّلْ فِي عَظِيمِ ثَوَابِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ قَوْلَهُ ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَنَّةِ ۗ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود: ٢٣]، أَي: خَضَعُوا لَهُ،
وَاسْتَكَانُوا لِعَظَمَتِهِ، وَذَلُّوا لِسُلْطَانِهِ، وَأَنَابُوا إِلَيْهِ بِمَحَبَّتِهِ،
وَخَوْفِهِ، وَرَجَائِهِ، وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ.

وَذَكَرُ الْإِخْبَاتِ عَقِبَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ مَعَ
أَنَّهُ دَاخِلٌ فِيهِ يَدُلُّ عَلَىٰ عِظَمِ شَأْنِ الْإِخْبَاتِ، وَعِظَمِ مَكَانَةِ
الْمُخْبِتِينَ عِنْدَ اللَّهِ، وَعِظَمِ ثَوَابِهِمْ.

ولهذا لما كان النبي ﷺ يسأل الله ﷻ أن يعينه على أنواع من الأعمال الصالحة، جعل منها سؤال الله ﷻ أن يجعله مُحِبًّا له؛ كما ورد في حديث ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مُطِيعًا، إِلَيْكَ مُحِبًّا، إِلَيْكَ أَوَاهًا مُنِيًّا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي»^(١).

فتضمَّنَ هذا الدعاءُ أكثرَ من عشرين مطلبًا؛ كُلُّها من المطالبِ العِظامِ، وكان مِنْ ضمنها قوله ﷺ: «إِلَيْكَ مُحِبًّا»، وفي رواية: «لَكَ مُحِبًّا»؛ كما في الآيتين: ﴿فَتَحَبَّتْ لَهُ﴾.

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (١٥١٠)، والترمذي في «جامعه» (٣٥٥١)، وابن ماجه في «سننه» (٣٨٣٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٨٥).

الدُّعَاءُ وَالْإِحْبَاتُ لِلَّهِ تَعَالَى

﴿قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٢٣]، فهو إخباتٌ لله وإخباتٌ إلى الله ﷻ.

وإنَّ من توفيق الله ﷻ لِمَن شاء من عباده مُلازمتهم هذا الدعاء، ودوام سؤالهم لهذه المطالب الرَّفِيعَة؛ لينالوا الفضلَ الكبيرَ، والبشارةَ العظيمةَ التي وعد بها رب العالمين.

وقد ذكر الحافظ أبو حفص عمر بن علي البزار في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّ هذا الدعاء كان غالبَ دعائه ﷺ^(١).



(١) «الأعلام العليَّة في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية» (ص ٣٧).

الحجُّ والإِخْبَاتُ لِلَّهِ تَعَالَى

إِنَّ الْمُؤْمِنَ الْمُؤَفَّقَ إِذَا عَلِمَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ عِظَمِ مَنْزِلَةِ
الإِخْبَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى، وَمَا أَعَدَّهُ اللَّهُ ﷻ لِلْمُخْبِتِينَ وَبَشَّرَهُمْ بِهِ؛
حَرَصَ كُلَّ حِرْصٍ عَلَى الْأَسْبَابِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى هَذِهِ
الدرَّجَةِ الرَّفِيعَةِ، وَالْمَكْرَمَةِ الْعَظِيمَةِ.

فَمِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ: مَا تَقَدَّمَ مِنْ ضَرُورَةِ الدُّعَاءِ،
وَسُؤَالِ اللَّهِ ﷻ أَنْ يَجْعَلَهُ مُخْبِتًا لَهُ، مُنِيبًا إِلَيْهِ.

وَمِنْ الْأَسْبَابِ الْمَعِينَةِ لِلْقَلْبِ عَلَى الْإِخْبَاتِ لِلَّهِ تَعَالَى:
تَدْبِيرُ كَلَامِ اللَّهِ ﷻ، وَدَوَامُ تِلَاوَتِهِ، وَطَلْبُ هِدَايَاتِهِ، وَالتَّخَشُّعُ
فِي قِرَاءَتِهِ، وَالْعَمَلُ بِأَحْكَامِهِ وَإِرْشَادَاتِهِ، كَمَا قَالَ ﷻ:
﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢].

وَمِنْ الْأَسْبَابِ أَيْضًا: مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ ﷻ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَبَشِّرِ
الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَى مَا
أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥].

فذكر صفات المخبتين الجامعة التي إن وُجدت في العبد مجتمعةً دلَّت على صدق إخباته إلى الله ﷻ.

وهي صفاتٌ أربعٌ للمخبتين:

أولها: وَجَلَّ الْقَلْبُ عِنْدَ ذِكْرِ اللَّهِ ﷻ، وَالْوَجَلُ كَمَا قَالَ الْعُلَمَاءُ: خَوْفٌ مَعَ مَحَبَّةٍ وَهَيْبَةٍ، فَهَذِهِ صِفَةُ الْقَلْبِ الْمُخْبِتِ إِلَى اللَّهِ ﷻ؛ أَنَّهُ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ عِنْدَهُ وَجَلَ قَلْبُهُ، وَهَذَا الْوَجَلُ لِقَلْبِهِ نَاشِئٌ عَنِ حُسْنِ مَعْرِفَتِهِ بِرَبِّهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، أَي: الْعَالِمِينَ بِاللَّهِ.

والصفة الثانية: الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ الْمُؤَلَّمَةِ، وَمَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَهُوَ مُبْتَلًى بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْبَلَايَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، قَالَ ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرِتِ وَبَشِيرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والصفة الثالثة: إِقَامَةُ الصَّلَاةِ، أَي: حِفَظًا عَلَيْهَا، وَإِتْيَانًا بِهَا قَائِمَةً بِأَرْكَانِهَا وَشُرُوطِهَا وَوَاجِبَاتِهَا؛ خُضُوعًا وَخُشُوعًا وَحُسْنًا تَقَرُّبٍ إِلَى اللَّهِ ﷻ.

والصفة الرابعة: بذل المال وإنفاقه في سبيل الله ﷻ في وجوه الخير وأبوابه المتنوعة من واجب ومستحب، طيبة بذلك النفس، راجية موعود الله ﷻ وعظيم ثوابه.

قال ابن القيم رحمته الله: «فذكر للمُخْبِتِينَ أربع علاماتٍ: وجلُّ قلوبهم عند ذكره، والوجلُّ خوفٌ مقرونٌ بهيبةٍ ومحبةٍ، وصبرُهُم على أقداره، وإتيانُهُم بالصَّلَاةِ قائمة الأركان ظاهرًا وباطنًا، وإحسانُهُم إلى عبادِهِ بالإِنْفَاقِ ممَّا آتَاهُمْ، وهذا إنما يتأتَّى للقلبِ المُخْبِتِ...»

والمقصود: أن القلب المُخْبِتِ ضدُّ القاسي والمريض، وهو **سجانه** الذي جعل بعض القلوب مُخْبِتًا إليه، وبعضها مريضًا، وبعضها قاسيًا، وجعل للقسوة آثارًا، وللإخبات آثارًا.

فمن آثار القسوة: تحريفُ الكَلِمِ عن مواضعِهِ، وذلك من سوء الفهم وسوء القصد، وكلاهما ناشئ عن قسوة القلب. ومنها: نسيان ما ذُكِّرَ به؛ وهو: ترك ما أُمِرَ به علمًا وعملاً.

وَمِنْ آثَارِ الْإِخْبَاتِ: وَجَلَّ الْقُلُوبِ لَذِكْرِهِ سَجَانَهُ،
وَالصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِهِ، وَالْإِخْلَاصُ فِي عِبُودِيَّتِهِ، وَالْإِحْسَانُ
إِلَى خَلْقِهِ»^(١).

وَمِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْمَوْصِلَةِ إِلَى هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ:
أَدَاءُ مَنَاسِكِ الْحَجِّ، وَالْحِرْصُ عَلَى تَكْمِيلِهَا وَإِتْقَانِهَا، فَقَدْ
تَقَدَّمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَّ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ عِدَّةً مِنْ أَحْكَامِ
الْحَجِّ فِي «سُورَةِ الْحَجِّ»، أَمَرَ نَبِيَّهَ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يُبَشِّرَ
الْمُخْبِتِينَ مِنْ عِبَادِهِ، فَقَالَ ﷺ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]،
وَهَذَا يَدُلُّ أَنَّ أَدَاءَ مَنَاسِكِ الْحَجِّ مِنْ أَعْظَمِ سَبَابِ صَلَاحِ
الْقَلْبِ وَإِخْبَاتِهِ لِلَّهِ ﷻ.

فَإِنَّ لِلْحَجِّ أَثْرًا عَظِيمًا فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْإِخْبَاتِ مِنْ حِينِ
الشُّرُوعِ فِيهِ، إِلَى أَنْ يُتِمَّ الْحَاجُّ نُسُكَهُ، وَيُظْهِرُ ذَلِكَ وَيَتَّضِحُّ
بِذِكْرِ بَعْضِ مَظَاهِرِ الْإِخْبَاتِ فِي مَنَاسِكِ الْحَجِّ:

(١) «شفاء العليل» (١/ ٣٤٨ - ٣٤٩).

❁ فَأَوَّلُ مَا يَبْدَأُ الْحَاجُّ هَذِهِ الرَّحْلَةَ مِنَ الْمِيقَاتِ يَبْدُوهَا بِالتَّوَاضِعِ وَالْانْكِسَارِ لِلَّهِ ﷻ؛ فَإِنَّهُ قَبْلَ إِحْرَامِهِ سَيَعْمَدُ إِلَى لِبَاسِهِ الَّذِي اعْتَادَهُ وَالْفَهْءَ، وَكَانَ يَتَجَمَّلُ بِهِ فِي بَلَدِهِ؛ فَيَتَجَرَّدُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَيَغْتَسِلُ وَيَتَطَيَّبُ، ثُمَّ يَسْتَبْدِلُهُ بِلِبَاسِ الْإِزَارِ وَالرِّدَاءِ الْأَبْيَضِينَ النَّظِيفِينَ؛ طَاعَةً وَإِحْبَاتًا وَتَوَاضَعًا لِلَّهِ ﷻ، وَيَسْتَوِي فِي هَذَا اللَّبَاسِ كُلُّ مَنْ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ، وَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ، وَالرَّئِيسِ وَالْمَرْوُوسِ، وَالغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ؛ كُلُّهُمْ عَلَى هَيْئَةٍ وَاحِدَةٍ.

❁ ثُمَّ يَحْسِرُ الْحَاجُّ عَنْ رَأْسِهِ، وَيَضَعُ مَا كَانَ يَلْبَسُهُ عَلَى رَأْسِهِ مِنْ عِمَامَةٍ أَوْ غُتْرَةٍ أَوْ غَيْرِهَا مِمَّا يُلْبَسُ فِي بَلَدِهِ؛ تَوَاضَعًا وَانْكِسَارًا لِلَّهِ تَعَالَى.

❁ وَبَعْدَ ذَلِكَ يُشْرَعُ لِلْحَاجِّ أَنْ يُلْبِيَ مِنْ حِينَ إِحْرَامِهِ مِنَ الْمِيقَاتِ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ ﷻ الْمُعَظَّمِ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ، وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ»، وَيَسْتَمِرُّ بِتَرْدَادِ هَذِهِ التَّلِيَّةِ

العظيمة وقت أداء مناسك الحجِّ، رافعاً بها صوته لمرّاتٍ عديدةٍ، استجابةً وانكساراً وخضوعاً وطاعةً لله ﷻ، ويُعدُّ هذا المشهد من الدُّروسِ العظيمة التي يتجلّى فيها مظهرُ الإِخْبَاتِ لله ﷻ.

❁ فإذا وصلَ إلى بيتِ الله الحرام، وبدأ بالطواف حول الكعبة، يرْمُلُ في الثَّلَاثَةِ الأشْوَاطِ الأُولَى، ويمشي في الأربعة المتبقيّة، ثمَّ يذهب إلى الصِّفا والمروة ليطوف بينهما سبعة أشواطٍ، يسعى بين العَلَمَيْنِ، وَيَصْبِرُ على ما يَعْرُضُ له مِنَ المشقّة، وَيُكَابِدُ نَفْسَهُ؛ طَلَبًا لما عند الله من الأجر، وخضوعاً وإِخْبَاتًا وتذلُّلاً للباري ﷻ أكثرًا من ذكره ومناجاته.

وفي هذا تقول أمُّ المؤمنين عائشةُ الصّديقة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «إِنَّمَا جُعِلَ الطَّوْفُ بِالْبَيْتِ، وَالسَّعْيُ بَيْنَ الصِّفَا وَالْمَرْوَةِ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ»^(١).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنّفه» (١٥٣٣٣).

❁ ثم في يوم عرفة يجتمعُ جميع الناسِ على صعيدِ عرفةٍ منْ أنحاءِ الدُّنيا، وأرجاءِ المعمورة، بألسنةٍ مُختلفةٍ، وألوانٍ مُتباينة، وبُلدانٍ متنوّعةٍ، في يومٍ ومكانٍ ووقتٍ واحدٍ، والذي جمعهم هذا الجمعَ هو ربُّ العالمين ﷻ.

فبعدهما كان كُلُّ واحدٍ من الحجاجِ في بيته بين أولاده، أو مُنشغلاً بتجارته ومصالحه؛ انصرفوا عن هذا كُلِّه ليَقفوا عشيّةَ عرفةٍ في صعيدِ واحدٍ؛ تذلُّلاً وإخباتاً وطلباً للمغفرة من ربِّ العالمين.

❁ ثم يَنفِرُ الحجاجُ إلى مزدلفة؛ وهي المَشعرُ الحرام، وذلك بعد غروب الشَّمسِ من عَشيةِ يومِ عرفة.

فيجتمعون فيها تلك الليلة، ويبيتون فيها، بعيداً عن مساكنهم وفُرشهم؛ طاعةً وإخباتاً لله ﷻ، فإذا استيقظوا وصلَّوا الفجرَ فيها، قاموا مُستقبلي القبلة يذكرون الله ﷻ، ويدعونه، ويُلحون عليه بالطلبِ إلى أن يحصلَ الإسفارُ، فيدفعون إلى منى قبل أن تَطلُعَ الشمسُ.

❁ فينطلقون إلى منى؛ ليرموا جمرَةَ العقبة الكبرى في يوم العيد، وهو يوم الحج الأكبر؛ العاشر من ذي الحجة، ويتهيَّئوا بعد ذلك لنحر الهدايا في هذا اليوم العظيم؛ كما

قال تعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعْتِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا

خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۖ فَإِذَا وَجِئْتُمْ جُنُومَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّقُورُ مِنْكُمْ

كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ ۗ وَبَشِّرِ

الْمُحْسِنِينَ ﴿الحج: ٣٦-٣٧﴾، فيبدلون أموالهم في شراء هذه

الهدايا، وينحرونها، ثم يطعمون منها، ويُطعمون القانع والمُعترَّ - أي: الفقير الذي لا يسأل؛ تقنعا، وتعففاً، والفقير

الذي يسأل-؛ قرباناً لرب العالمين ﷻ، وابتغاء مرضاته وحده لا شريك له.

❁ ثم يعمد كل منهم إلى شعر رأسه فيحلقه أو

يقصره، ويقضي تفته؛ وهو: إزالة الأذى الذي لحقه في

حالِ الإحرام؛ من الأخذِ من الشَّاربِ، وقصِّ الأظفارِ، وإزالةِ شعرِ العانةِ إن احتاجَ ذلك، ثمَّ يكونُ منهم التَّهْيِؤُ والتَّطْيِيبُ استِعدادًا للطوافِ بالبيتِ العتيقِ؛ كما قال تعالى:

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ

الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

يفعلون ذلك كُلَّهُ بخشوعٍ وخُضُوعٍ ليس لشيءٍ إلا ابتغاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ، وطلبًا لمغفرته، حتى يُتِمُّوا بَقِيَّةَ أَعْمَالِ حَجَّهِمْ؛ مخبتين منيبين لله عَزَّ وَجَلَّ؛ لينالوا البشارةَ التي ذكرها ربُّ العالمين في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

قال أبو حيان الأندلسي عَزَّ وَجَلَّ: «وناسبَ تَبَشِيرٍ مَنِ اتَّصَفَ بِالْإِحْبَاتِ هُنَا لِأَنَّ أَعْمَالَ الْحَجِّ؛ مِنْ: نَزْعِ الثِّيَابِ، وَالتَّجَرُّدِ مِنَ الْمَخِيطِ وَكَشْفِ الرَّأْسِ وَالتَّرَدُّدِ فِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ الْعَبْرَةِ الْمُحَجَّرَةِ، وَالتَّلْبَسِ بِأَعْمَالٍ شَاقَّةٍ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ مُؤَذِّنٌ بِالِاسْتِسْلَامِ الْمَحْضِ، وَالتَّوَاضُعِ الْمُفْرَطِ؛ حَيْثُ يَخْرُجُ الْإِنْسَانُ عَنْ مَأْلُوفِهِ إِلَى أَعْمَالٍ غَرِيبَةٍ،

ولذلك وَصَفَهُم بِالْإِخْبَاتِ وَالْوَجَلَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى،
وَالصَّبْرَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْمَشَاقِّ، وَإِقَامَةَ الصَّلَوَاتِ فِي
مَوَاضِعَ لَا يُقِيمُهَا إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُصْطَفُونَ، وَالْإِنْفَاقِ مِمَّا
رَزَقَهُمْ؛ وَمِنْهَا الْهَدَايَا الَّتِي يُغَالُونَ فِيهَا»^(١).

وقال محمد صديق خان رحمته الله: «ولا يخفى حُسْنُ
التَّعْبِيرِ بِالْمُخْبِتِينَ هُنَا مِنْ حَيْثُ إِنَّ نَزْوَلَ الْخَبْتِ مُنَاسِبٌ
لِلْحَجَّاجِ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنْ صِفَاتِ الْمُتَوَاضِعِينَ؛ كَالْتَجَرُّدِ عَنِ
الْبَّاسِ وَكَشْفِ الرَّأْسِ، وَالغُرْبَةِ عَنِ الْأَوْطَانِ»^(٢).

فيجبُ عَلَى الْحَاجِّ النَّاصِحِ لِنَفْسِهِ أَنْ يَسْتَحْضَرَ هَذِهِ
الْمَعَانِي الْجَلِيلَةَ، وَأَنْ يَرِاقِبَ قَلْبَهُ وَتَأْتِرَهُ بِهَذِهِ الْمَنَازِلِ
وَالْمَقَامَاتِ الْعَظِيمَةِ عِنْدَ تَأْدِيَةِ الْمَنَاسِكِ، وَيَنْظُرَ هَلْ أَثَّرَ
الْحَجُّ فِي قَلْبِهِ إِخْبَاتًا وَتَوَاضَعًا لِلَّهِ تعالى؟

(١) «البحر المحيط في التفسير» (٧/٥٠٨).

(٢) «فتح البيان في مقاصد القرآن» (٩/٤٩-٥٠)، وأشار إلى هذا المعنى في
ذكر البشارة في آيات المناسك من سورة الحج: الألويسي في «روح المعاني»
(٩/١٤٧)، والشَّهَابُ فِي حَاشِيَتِهِ عَلَى «تفسير البيضاوي» (٦/٢٩٦-٢٩٧).

فإن من علامات قبول الحجِّ وحصولِ ثمرته أن يكونَ للحجِّ أثرٌ على الحاجِّ، وأن تكون حالُ المُسلم بعد الحجِّ أحسنَ من حاله قبله؛ كما قال ﷺ: ﴿وَمَنْ يَقْرَفَ حَسَنَةً نَزَدَهُ، فِيهَا حَسَنًا﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال ﷺ: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

وهذا الإخباتُ في القلبِ لا بدَّ أن يظهر أثره على الجوارح، وقد كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذا رأى الرِّبعَ بنَ خُثيم قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾^(١)؛ لِمَا يَرَى فِي سَمْتِهِ وَحَالِهِ مِنْ أَثَرِ الْإِخْبَاتِ عَلَيْهِ.

وفي رواية أن ابن مسعود رضي الله عنه قال له: «يا أبا يزيد، لو رآكَ رسولُ الله ﷺ لأحبَّكَ، وما رأيتك إلا ذكَّرتُ المُخْبِتِينَ»^(٢). وقال محمود بن خالدٍ: «سمعتُ أبي يقول: ما قرأتُ هذه الآية: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ إلا ذكَّرتُ سعيدَ بنَ جُبَيْرٍ»^(٣).

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (١٧٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٢٨٦).

(٣) أخرجه ابن المقرئ في «معجمه» (١١٨٨).

والإِخْبَاتُ مرتقى يتطلَّبُ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ إِلَى أَنْ تَسْكُنَ وَتَطْمَئِنَّ بِنُزُولِهَا مَنَازِلَ الْمُخْبِتِينَ، ولهذا يقول ابن القيم رحمته الله في ثنایا حديثه عن منزلة الإِخْبَاتِ: «فَالنَّفْسُ جَبَلٌ عَظِيمٌ شَاقٌّ فِي طَرِيقِ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ تعالى، وَكُلُّ سَائِرٍ فَلَا طَرِيقَ لَهُ إِلَّا عَلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ شَاقٌّ عَلَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ.

وَفِي ذَلِكَ الْجَبَلِ أَوْدِيَةٌ وَشُعُوبٌ، وَعَقَبَاتٌ وَوُهُودٌ، وَشَوْكٌ وَعَوَسَجٌ، وَعَلَيْقٌ وَشِبْرُقٌ، وَلُصُوصٌ يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى السَّائِرِينَ، وَلَا سِيَّمَا أَهْلَ اللَّيْلِ الْمُدْلِجِينَ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ عُدَدُ الْإِيمَانِ، وَمَصَابِيحُ الْيَقِينِ تَتَقَدُّ بِرَبِّتِ الْإِخْبَاتِ، وَإِلَّا تَعَلَّقَتْ بِهِمْ تِلْكَ الْمَوَانِعُ، وَتَشَبَّثَتْ بِهِمْ تِلْكَ الْقَوَاطِعُ، وَحَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّيْرِ؛ فَإِنَّ أَكْثَرَ السَّائِرِينَ فِيهِ رَجَعُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ لَمَّا عَجَزُوا عَنْ قَطْعِهِ وَاقْتِحَامِ عَقْبَاتِهِ، وَالشَّيْطَانُ عَلَى قُلَّةِ الْجَبَلِ -أَي: أَعْلَاهُ- يُحَذِّرُ النَّاسَ مِنْ

صُعُودِهِ وَارْتِقَائِهِ، وَيَخَوْفُهُمْ مِنْهُ؛ فَتَتَفَقَّحُ: مَشَقَّةُ الصُّعُودِ،
وُقُوعُ ذَلِكَ الْمُخَوِّفِ عَلَى قَلْبِهِ، وَضَعْفُ عَزِيمَةِ السَّائِرِ
وَنَيْتِهِ؛ فَيَتَوَلَّدُ مِنْ ذَلِكَ: الْإِنْقِطَاعُ وَالرُّجُوعُ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ
عَصَمَهُ اللَّهُ.

وَكُلَّمَا رَقِيَ السَّائِرُ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ اشْتَدَّ بِهِ صِيَاحُ
الْقَاطِعِ، وَتَحْذِيرُهُ وَتَخْوِيفُهُ، فَإِذَا قَطَعَهُ وَبَلَغَ قَلْبَهُ؛ انْقَلَبَتْ
تِلْكَ الْمَخَافُوفُ كُلُّهُنَّ أَمَانًا، وَحَيْثُ يَسْهُلُ السَّيْرُ، وَتَزُولُ
عَنْهُ عَوَارِضُ الطَّرِيقِ وَمَشَقَّةُ عَقْبَاتِهَا، وَيُرَى طَرِيقًا وَاسِعًا
أَمْنًا يُفْضِي بِهِ إِلَى الْمَنَازِلِ وَالْمَنَاهِلِ، وَعَلَيْهِ الْأَعْلَامُ، وَفِيهِ
الْإِقَامَاتُ قَدْ أُعِدَّتْ لِرُكْبِ الرَّحْمَنِ.

فَبَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ: قُوَّةُ عَزِيمَةٍ، وَصَبْرُ
سَاعَةٍ، وَشَجَاعَةُ نَفْسٍ، وَثَبَاتُ قَلْبٍ، وَالْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»^(١).

(١) «مدارج السالكين» (٢/٢١٥).

وليعلم الحاج أن أعظم ما يبلغ بالقلب درجة الإخبات لله ﷻ توحيد الله ﷻ أثناء تأدية مناسك الحج، فإنَّ الحجَّ -بل الدين كله- قائم على توحيد الله ﷻ وإخلاص العبادة له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة: ٥].

ولا أدل على ذلك من التلبية التي يبدأ بها الحاجُّ نُسكَهُ، وهي قوله: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحَمْدَ والنَّعْمَةَ لك والمُلْكُ، لا شريك لك»؛ فإنَّ معناها: أنا مُسْتَجِيبٌ ومطيعٌ لأمرِك، ومنقادٌ لشرعِكَ ربَّنَا.

وتكرار: «لبيك اللهم لبيك» يُرادُ به: استجابةٌ يتبعها استجابةٌ، وامْتِثَالٌ يتبعهُ امْتِثَالٌ، وانقيادٌ يتبعهُ انقيادٌ.

وقد تضمَّنت هذه التلبية العظيمة نوعي التوحيد؛ العِلْمِيَّ والعَمَلِيَّ، فإنَّ التوحيدَ الذي خلق اللهُ تَعَالَى الخلقَ لأجلِهِ وأوجَدَهُم لتحقيقِهِ ينقسمُ إلى نوعين:

* **توحيد علمي**: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِنَعْلَمَوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

* **وتوحيد عملي**: دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذريات: ٥٦].

فقول المُلبي: «لِيَاكَ اللَّهُمَّ لِيَاكَ، لِيَاكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لِيَاكَ» يتضمَّن التوحيد العملي.

وقوله: «إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ» يتضمَّن التوحيد العلمي.

ولهذا يقول الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه واصفاً تلبية رسول الله: «فَأَهْلًا بِالتَّوْحِيدِ؛ لِيَاكَ اللَّهُمَّ لِيَاكَ، لِيَاكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لِيَاكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ، وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ»^(١).

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (١٢١٨).

فكَلِّمًا قَوِيَّ حَظُّ الْحَاجِّ فِي حَجِّهِ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ
وَتَحْقِيقِ الْاِسْتِسْلَامِ لِلَّهِ ﷻ؛ قَوِيَّ حَظُّهُ مِنْ إِخْبَاتِ الْقَلْبِ
لِلَّهِ ﷻ.

نَسَأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ لَنَا حَامِدِينَ، لَهُ شَاكِرِينَ،
إِلَيْهِ مُخْبِتِينَ مُنِيبِينَ، وَأَنْ يَهْدِيَنَا، وَيُسِّرَ الْهَدْيَ لَنَا،
وَسَائِرَ الْمُؤْمِنِينَ.

وَأَنْ يُسِّرَ لِحَجَّاجِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ حَجَّهْمَ، وَأَنْ يَعِينَهُمْ
عَلَى أَدَائِهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِيهِ، وَأَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنْهُمْ بِمَنْهٍ
وَكَرَمِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ قَرِيبٌ.

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.



قال أبو حيان الأندلسي رحمته الله:

«وَنَاسَبَ تَبَشِيرٌ مِّنْ أَتَّصَفَ بِالْإِخْبَاتِ هُنَا لِأَنَّ أَفْعَالَ
الْحَجِّ؛ مِنْ: نَزَعَ الثِّيَابِ، وَالتَّجَرَّدِ مِنَ الْمَخِيْطِ وَكَشَفِ
الرَّأْسِ وَالتَّرَدُّدِ فِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ الْغَبْرَةَ الْمُحَجَّرَةَ، وَالتَّلَبُّسِ
بِأَفْعَالٍ شَاقَّةٍ لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى؛ مُؤَدِّنٌ بِالِاسْتِسْلَامِ الْمَحْضِ،
وَالتَّوَاضُعِ الْمُفْرِطِ؛ حَيْثُ يَخْرُجُ الْإِنْسَانُ عَنِ مَأْلُوفِهِ إِلَى أَفْعَالٍ غَرِيْبَةٍ،
وَلِذَلِكَ وَصَفَهُم بِالْإِخْبَاتِ وَالْوَجَلِ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ تَعَالَى، وَالصَّبْرِ
عَلَى مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الْمَشَاقِّ، وَإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ فِي مَوَاضِعَ لَا يُقِيمُهَا
إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الْمُصْطَفُونَ، وَالْإِنْفَاقِ مِمَّا رَزَقَهُمْ؛ وَمِنْهَا الْهَدَايَا
الَّتِي يُغَالُونَ فِيهَا».

«البحر المحيط في التفسير» (٧/٥٠٨).